كأس

بقلم : أمين يوسف غراب

في اضطراب شديد دلفت الى المسرى في الظلام ، وفي خوف متزايد التفتت الى الوراء ، ولما لم تجد أحدا يراهـا استردت انفاسهـا ، ولما اصلحت من هندامهـا راحت تخترق الممر وتتخطى بعض ابواب الشقق ، وهي تبحث عن باب معين بالذات وصف لها وصفـا دقيقا ، وكانها كانت لا تريد أن تتعرف عليه لأنها عندما وقفت أمامه عاودهـا نفس الاضـطراب ونفس الخوف . وهمت أن ترجع فعلا ، ولكنها تذكرت شيئا هاما هي في حاجة اليه ، ولهـذا لم تشأ أن تفكر ومدت يدها المرتعشة وضغطت على زر كهربائي صغير ، وترامى صوت الجرس الى اذنيهـا من الداخل انسته بعواء ذئب جائع ، فارتعش جسمها كله بعد أن كانت ترتعش يدها فقط ، وراحت تنتظر وتترقب ، انهـا تريد لهذا الباب أن يفتح سريعا وسريعا جدا وهي تريد له الا يفتح أبدا . انهـا كانت لا تعرف ماذا تريد .. وسمعت صوت المزلاج يتحرك من الداخل فأغمضت عينيها سريعا حتى لا ترى خوفا أبشع من هذا الخوف الذي هي فيه . وانفتح الباب عن فرجة صغيرة ومع ذلك دلفت منها سريعا دون ان ترى احدا ووقفت في الداخل فقد كانت الردهة شبه مظلمة وكانت لا تزال أيضا مغمضة العينين ، كان ظهرها له وهي واقفة ، وكان ظهره لها وهو يغلق الباب ويحكم اغلاقه جيدا . ولما فعل استدار وقال ولكن قبل أن يرى وجهها

ـ أهلا وسهلا .

وتمتمت في صوت خافت بعيد وهي تفتح عينيها .

ـ اهلا بك .

واشار الى غرفة مضيئة وقال وكأنه لم ير وجهها ايضا

ـ تفضلي .

وسار امامهـا وسارت هي خلفه . ولما اقتربت من شـعاع النور الساطع المنبعث من فرجة الباب تبينته ، ولما رأته شعرت على الفور باشـمئزاز لا حد له نحو هـذا الرجل العجوز الذي وخط الشيب شعره وتقوس ظهره واعوج حتى ساعده وراح يسير امامها كما تسـير الدببة تماما !! ما اعذر امثال هـؤلاء الرجال ... حتى هذا الرجل ايضا .. حتى وهو في هذه السن . وزمت على

شغلتها سريعا في اضطراب اذ ظنت ..
ولا تدري لماذا ظنت هذا الظن .. ظنت أن الهواجس والأحاسيس والمشاعر قد تسمع لغتها الاذن . وهي لا تريد أن تسمعه الا كل ما يرضيه ..

وكانت قد بلغت الغرفة ورأت بعض المقاعد المتناثرة هنا وهناك في فوضى عجيبة كانت المقاعد أشبه ما تكون ممطلة ، تبدت لعينها أشبه ما تكون بتماثيل قديمة ملقاة في العراء من آلاف السنين . وتأملتها ثانية ورأت فيما رأت شيئا اثرعجت له وزاد كثيرا من اشمئزازها .. رأت مائدة كبيرة عليها خمر .. أجل خمر .. زجاجة كبيرة ممتلئة .. وأخرى بجوارها فارغة . ورأت ايضا كأسين ، كأسا فارغة لم تمتلىء بعد . لم تمتلىء أبدا فهي لذلك نظيفة لامعة .. خلوة في العين ، ورأت كأسا أخرى قذرة شاحبة ملوثة ، أشبه ما تكون بالشيء المنصب .. المرهق .. المنهوك القوى . وكان بها خمر . وتبدت لها هذه الكأس وكأنها تئن من كثرة ما تصب . من كثرة ما امتلأت وما فرغت ... لعل هذا الرجل شرب كثيرا . لعله أرهق هو ايضا .. ونظرت اليه لاول مرة ، ورأت عينيه راعبهما بلون الدم المسفوك لساعته ، أم هما تماما بلون البقايا التي في قلب هذه الكأس الملتعسة ... ترى من الذي أتعب الآخر وأرهقه كل هذا الارهاق ؟؟ ... ونظرت اليه ثانية وأحست باشفاق زائد عليه .. ولكنها عندما نظرت الى عينيه مرة أخرى استبدل الاشفاق عليه بخوف كبير منه ، ولهذا دق قلبها دقات سريعة ، سريعة جدا .. كل ذلك وكانت لا تزال واقفة .. وكان هو قد أعد لها مقعدا بجوار مقعده . ولما فعل قال وهو ينظر اليها لأول مرة ..

ـ تفضلي .

فجلست ..

ـ أهلا وسهلا .

نظرها وهو يجلس بجوارها ويتفحصها جيدا ، فتشتت ولكن دون أن تنظر اليه .

ـ أهلا بك .

ومد يده وناولها سيجارة وكان قد نسي انه حياها مقال ..

ـ أهلا وسهلا ..

ونظرت اليه هذه المرة وهي تبتسم .

ـ أهلا بك ..

ولما أشعل لها السيجارة قال ..

ـ حدثيني عنك كثيرا أنت شقيقة

فلم تجب لأنها استشعرت على الفور سخطا هائلا على شقيقة هذه أطبق على أنفاسها ... كان دائما سخطها على شقيقة هكذا يطبق على الأنفاس .. كان تماما أشبه ما يكون بالسخط المحيط الذي يستشعره انسان نحو انسان آخر ورطه في شر كبير .. في حياته مثلا ...

وكان قد نسي أنه قال لها شيئا .. ونسي أيضا أنه حياها لانه قال لها سريعا وهو يتفحصها تعيينه هذه المرة .

ـ أهلا وسهلا .

ونظرت الى الكأس التي امتلأت . والسيجارة التي تضطرب بين شفتيه المرتعشتين واشفقت لأول مرة في حياتها

على رجل محمور ، ولذلك قالت وهي ايضا تضحك بعينيها ·

ـ اهلا بك ·

وأراد ان يقول لها شيئا آخر ، ولكن السيجارة سقطت من بين أصابعه فتناولتها هي من على الارض وأطفأتها · وكأنه قدر لها هذا الجميل، لانه قال وهو ينظر هذه المرة الى الزجاجة التي امامه ويمد يده اليها ·

ـ اهلا وسهلا ·

وارادت ان تضحك هذه ولكنها رمت على شفتيها سريعا لانها رأته يملأ لها كأسا وهو يقول

ـ ماء ·· ثلج ·· صودا ·

وكانت لا تعرف شيئا من ذلك كله انها تعرف انها تكره الخمر ولا تطيقها وأرادت ان تقول له ذلك ولكنها تذكرت انها قالت هذا لرجل عجوز ذات مرة فغضب وطردها شر طردة · ترى هل سيطردها هو ايضا ان قالت له ـ لا ـ ؟ وصمتت لحظات · وقال هو ثانية ·

ـ ماء ·· ثلج ·· صودا ·

ـ ماء ·

وانفرجت أساريره عن ابتسامة حلوة وهو يناولها الكأس · وتألقت هذه الابتسامة أكثر وهو يراها تشرب · وادهشها ان انسانا يسره عذاب الآخرين · ولذلك قالت

الى هذا الحد أنت تحب الخمر ·

فقال وهو يضحك هذه المرة ·

ـ أحب الخمر واحب شفيقة لانها عرفتني عليك ·

وتحرك السخط في قلبها على شفيقه عنيفا حتى احست به يكاد يمزق احشاءها ولذلك قالت له في عنف ·

ـ منذ متى أنت تعرف على شفيقه

فقال وهو ينظر اليها في دهشة زائدة ·

ـ من شفيقة ؟ انا لا اعرف أحدا بهذا الاسم ·

وراحت تنظر الى عينيه وقد تبدت لها كدبالة تريد أن تتعرى ·· وصمتت ·· وصمت هو ايضا لحظات مسح خلالها سائلا لزجا كان يساب من بين شفتيه المرتعشتين ومد يده الى الزجاجة وأفرغ لها كأسا اخرى وقال وهو يقدمها اليها ·

ـ اهلا وسهلا ·

ولم تدر لماذا احست باشفاقها عليه يتزايد ويتزايد · ولذلك تناولت من يده الكأس وراحت تشربها وكأنها تشربها راضية عنها سعيدة بها ·

وحانت منه التفاتة الى يدها الطيعة لها على الكأس وهي تشرب · ورأى شيئا في أحد اصابعها يلتمع في عينيه ولما تأمله جيدا وعرف أنه دبلة من الذهب قال وهو يريد ان يضحك ·

ـ انت متزوجة ؟

فقالت وهي تعيد الكأس الفارغة الى مكانها وتتذكر شيئا ·

ـ كنت ·

فقال وهو يضحك هذه المرة ·

ـ وأنا ايضا كنت ·

ثم قال وهو يضحك طويلا ·

ـ أهلا وسهلا

ولما أفرغ لها الكأس الثانية قال وهو ما زال يضحك :

ـ اذن نحن متساويان ـ اذن اشربي ـ اجل أجل ـ نحن متساويان

وتناول كأسه هو وشربها مرة واحدة ثم قال وهو يناولها كأسها

ـ وأين ذهب روحك ؟

ـ ماذا

ـ أهلا وسهلا

قالها وكأنه يقولها لنفسه هذه المرة ـ ولذلك لم تجب هي بشيء ولهذا قال هو :

ـ ولذا لم يتروحي

ـ عندي ولد

وكان موجة طاغية من الفرحة المباغتة عمرته وحرقته الى بعيد ـ لأنه راح يضحك ويقهقه ويهتز فوق المقعد حتى كاد المقعد يسقط به ، ولذلك امسك به أو أمسك هو بنفسه حتى لا يسقط من فوقه وقال وهو يحاول أن يمسك عن الضحك ويتمسك بالمقعد الذي يجلس عليه ـ

ـ جعلته عندك ولد

وكانت الدهشة قد عقدت لسانها ورغم ذلك قالت

ـ نعم ـ وما الغريب في ذلك ؟

ـ لا لا لا ـ لا الغريب الا يكون ذلك

فنظرت اليه طويلا وتنهدت دون أن تدري ـ

ـ انك عجيب أيها الرجل

ـ ها ها ها ها ـ اشربي

وظنته قد سمعها فغضب فما نظرت ولكنها لما نظرت الى وجهه ورأته ما زال متهللا وما زال يضحك ـ اطمأنت وتناولت منه الكأس وشربتها ـ فقال وهو يملأ له كأسا أخرى

ـ وكم سنك ؟

ـ أربع عشرة ـ

فضحك وقال

ـ اذن اشربي

ـ شربت كثيرا

ـ اذن أشرب أنا

وتناول الكأس وأفرغها في جوفه مرة واحدة ـ ثم امسك بالزجاجة وافرغ منها كأسا أخرى وشربها ، وكانت هي تنظر اليه ولكنها كانت تبكي دون أن تدري لأنه نظر اليها وقال في دهشة

ـ هل تبكين

ـ لا أبدا ـ أبدا

فقال وهو يضحك ـ

ـ لا بد أنك تحبين الماء كثيرا

ـ لماذا ؟ ـ

ـ لأنك تبكين

ولما لم تجب قال هو :

ـ أنا أيضا أحبه كثيرا

فنظرت فاها وهي تقول

ـ هل انت تعرفه ؟

فعند ذلك شربها هذه المرة الى الزجاجة وملأ لها كأسا وملأ له أخرى وقال وهو يناولها كأسها

ـ اشربي .

فاضطربت يدها وهي تتناول منه الكاس واضطربت شفتاها وهي تسأله

ـ أقول هل أنت تعرفه ؟

ـ أعرف من ؟

ـ تعرف ابني .

ففهمه عاليا وهي يقول دهشا لهذا السؤال

ـ طبعا اعرفه ـ اعرفه ـ أعرفه جيدا ـ

ومد يده سريعا وهي ترتعش الى يده الأخرى التي كانت ترتعش ايضا ونزع منها ساعة ذهبية غالية وناولها اليها وهو يقول

ـ خذي هذه الهدية اليه ـ خذيها اليه . الى ابنك . نعم الى ابنك .

ـ أقول هل أنت تعرفه ؟

ـ قلت لك طبعا طبعا ـ وخذي ايضا .

ومد يده الى جيبه سريعا ايضا واخرج قلما ثمينا من الحبر وناولها اياه وهو يقول ويضحك ـ

ـ وخذي ايضا هذا هدية اليه .

وأدارت الدهشة راسها فدارت بها الأرض ولكنها تماسكت وأرادت أن تنطق ولكنه لم يمهلها لأنه راح يتلمس حواليه وكأنه يبحث عن شيء وهو يتمتم .

ـ انتظري .. انتظري ـ وماذا ايضا ..

ومرة أخرى راح يتلمس حواليه وفجأة كأنه تذكر شيئا فرح له كثيرا وهو يخرجه من جيبه ويعطيه اليها وهو يقول وما زال يضحك .

ـ خذي ايضا هذه السلسلة من الذهب انها اليه .. الى ابنك .. أجمل الى ابنك ـ

وأراد أن يقول لها شيئا آخر ولكنه قد بدل مجهودا كبيرا في الضحك أتعبه الى حد فاستراح على المقعد وأسند ظهره اليه والقى برأسه فوقه وأغمض عينيه حينا ليستريح قليلا ـ

وراحت هي تنظر اليه والدهشة تكاد تمسك بحواسها جميعا ـ من أين يعرف ابنها ـ وفتحت عينيها ونظرت اليه فازدادت دهشتها . وفتحت عينيها ونظرت الى كل هذه الهدايا التي مازالت تمسك بها وازدادت دهشتها . ودرت في اذنيها بعض الكلمات فاندهشت أكثر وأكثر ... طبعا طبعا اعرفه ... اعرفه ـ ولكن من أين يعرفه ؟؟ واحست بقوة تدفعها الى شيء ولذلك قالت له وكأنها تريد أن تتهرب .

ـ ابني اسألك هل أنت تعرفه ؟ .. ومن أين تعرفه ؟ .

وفتح عينيه وكان بفضل هذه الاغماضة القليلة قد استعاد قواه ولذلك نظر اليها ولما اعادت عليه السؤال اندهش دهشة غريبة لأنه انفجر ضاحكا هذه المرة وراح يضحك ـ ويضحك .. ثم مد يده وهو يضحك الى الزجاجة التي كانت قد اوشكت على أن تفرغ ، وأفرغ منها كاسا وشربها . ولما مسح ذلك الشيء الفرح الذي كان على شفتيه قال وكأنه يقول شيئا مفرحا .

ـ أنا أيضا عندي ولد ..

فغمرت فاها واغمضت عينيها فيما يشبه الذهول فقد كانت تتوقع أنه سيقول لها اي شيء غير هذا . ولما فتحت عينيها ونظرت حيا اليه وحيا الى الهدايا التي أعطاها اليها وكانت ما تزال في يدها قالت ..

ـ يبدو أنك تحب ابنك كثيرا .

فأراد ان يضحك ولكنه لم يقدر هذه المرة وقال ..

ـ كما تحبين انت ابنك تماما .

فاقتربت منه ووضعت يدهـا على كتفه وقالت وهي تضحك هذه المرة .

ـ هل عندك غيره ؟

ـ لا هو فقط .

فأراحت ذراعها فوق كتفه وهي تقول مداعبة .

ـ لابد أنه جميل جدا .

فتألق وجهه وزادت فرحته وهـو يقول لها في طفولة .

ـ مثل القمر تماما .. انظري ..

ودس يده سريعا في جيبه واخرج صورة لعمي في العشرين من عمره جميلا جمالا رائعا وقال وهو يمسك بالصورة في يده وينظر اليها معها .

ـ انظري هذه هي صورته .. انظري الى عينيه اليست جميلة ؟ ..

ـ جدا .

فازدادت فرحته وازدادت طفولته وهو يقول ..

ـ انظري .. انظري الى جبهته الى حاجبيه .. الى وجهـه .. أليس جميلا

ـ جدا . جدا .

ـ انظري .. انظري الى قوامه .

انظري الى كل شيء فيه .. انظري حتى الى الحذاء الذي في قدمه أليس جميلا ؟

فقالت وهي تمسك بالصورة وتريد ان تأخذها منه ..

ـ انه أجمل فتى رأته عيني .

ولما أطبق بأصابعه على الصورة ولم يعطها اليها قالت ..

ـ حفظه الله لك .

فوضع الصورة في جيبه وهو يهز لها رأسه شاكرا ويمسك بكأسه ويقول

ـ اشربي .

فقالت وهي تمسك بكأسها أيضا .

ـ هل هو يقيم معك هنا ؟ .

فضحك ضحكة عالية وقال وهـو يخلص الكأس من بين شفتيه .

ـ انه سافر .

ـ سافر الى أين .

ـ سافر الى بلد بعيدة .. بعيـدة جدا .

ـ وكيف اخباره ؟ .

ـ يعملها الله .

ولما اغمض عينيه قالت ..

ـ الا يكتب اليك ؟ ..

ـ بكل أسف ليس في تلك البلدة مكتب بريد .

فاندهشت هذا وقالت ..

ـ ليس من بلد في الدنيا لا يوجد فيها مكتب بريد .

فقال وهو يضحك .

ـ بلد واحد فقط . هو الذي سافر اليه احمد منذ عامين .

فاشتعلت عليه وقالت ..

ـ ومتى سيعود ؟

ـ اشربي .

قالها وهو يبتسم ومد يده التي كانت قد تعاودت جدا الى الكأس التي أمامه ورفعها الى شفتيه ولكنها فجأة سقطت من بين أصابعه ، فاندفعت

ومدت يدها لتناول الكأس من على الارض ولكنه قال لها

ـ اتركيها .

ثم جاهد عينيه جهادا طويلا حتى فتحهما ونظر اليها وقال ـ

ـ هيا بنا . انني أريد أن أنام ، أما مشعب اليس كذلك ؟ .

ـ لا أبدا .

فرفع ذراعه ولكنه لم يمدها طويلا وأشار الى خارج الغرفة على شمال الردهة التي امامها وقال

ـ من هذه الناحية تجدين الغرفة الثانية ـ انني وحدي في هذا البيت

أجل انني وحدي معه أن سافر أحمد

وكانت قد نهضت فعاود النظر اليها وهو يقول

ـ سأنتظر قليلا ، فقط أشرب هذه الكأس .

فنهضت دون أن تتبس وغادرت الغرفة ، فسارت شمالا مخترقة الردهة كما أشار اليها بالضبط ورأت بابا فتحته كان هو الباب الوحيد الذي رأته ولما دخلت منه ردته خلفها وتمددت فوق الفراش بملابسها حتى الحذاء ظل في قدمها انخمصت عينيها وراحت تنتظر .

ومرت خطات وخطات . ومع ذلك راحت تنتظر ، ومرت خطات أخرى .. وأخرى بعدها ، ودقت ساعة كانت في الردهة ثلاثا فدعرت . ان الساعة تشير الى الثالثة صباحا . وهي تريد أن تنصرف ، انها لا تستطيع أن تمكث أكثر

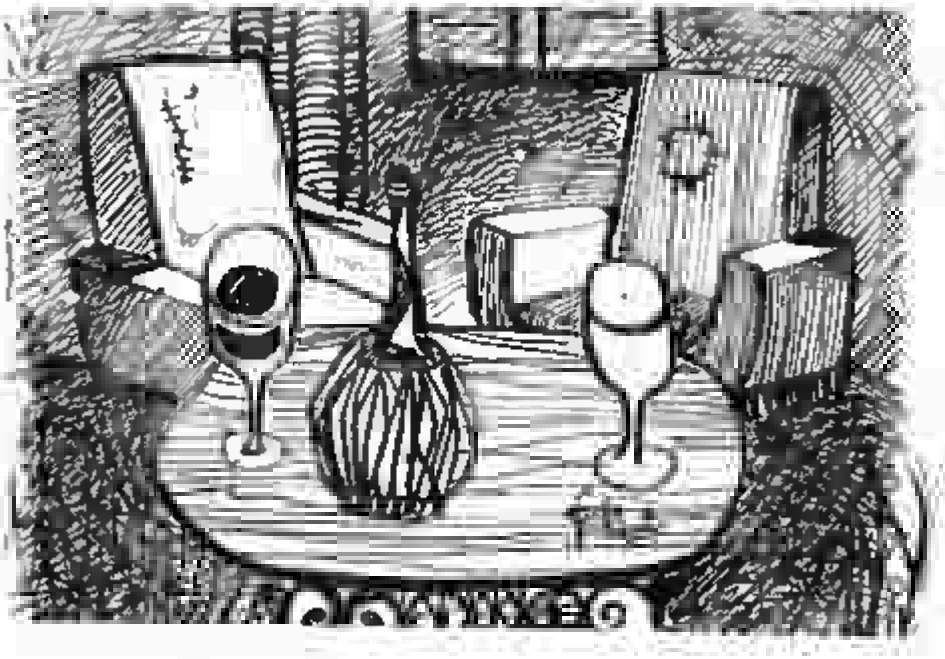

من ذلك ... ترى هل سيظل هـذا الرجل يشرب حتى الصباح ؟؟؟

ونهضت في تحاذل لا حد له وراحت تجر ساقيهـا جرا حتى فتحت الباب واخرجت الزجاجة وايضا المر الصغير الذي بين العرقين وهي تكاد تكون مغمضة العينين — انها لا تريد ان ترى أحدا . ولا تريد أن ترى شيئا . ان كل املها ان ينادي لها بالانصراف فقد دقت الساعة الثالثة صباحا . ولا تستطيع أن تمكث أكثر من هذا الوقت . وفجاة تعثرت قدمها في شيء فتحت عينيها فيما يشبه الخوف . وما أن نظرت حتى وقعت داهلة بكتلتها دعر شديد . فقد رأته ملقى في الظلام فوق الارض فاقـد الوعي . . انها أبدا لم تصدق عينيها . ولذلك نظرت ثانية فاسقط في يدها وهي تقترب منه واسقط في يدها أيضا وهي تثبته على بصيص الضوء الخافت المنبعث من فرجة الباب وتبين راسـه الغارق في شيء غريب . كانت الرأس ملفاة فوق رقعة لايعرف لها لون . هل هي سائل لزج محاطي ينساب من الفم . أم هي دم قاني ينساب من مجاريه ؟ . واغمضت عينيها في شيء لم تعرف له شبيها من قبل . هل هو الخوف ؟ هل هو الفزع ؟ هل هو الوهم ؟ . هل هو الجن ؟ هل هو الاشمئاز ؟ ؟ وفتحت عينيها ونظرت ثانية ولكن ما هذا الشيء الغريب الذي يلتمع تحت خده تماما وكانه يضـع رأسه عليه . وكانه يحميه في هـذا المكان من وجهه حتى لا يتلوث بالدماء كما تلوث أغلب الوجه .. ونظرت ثانية وتمعنت هذا الشيء وبعد جهد استطاعت ان تعرف انه صورة صغيرة لفتى جميل في العشرين من عمـره .. وحملقت عيناها وهي تناديه ولكنه لم يجب . وهزته ولكنه لم يتحرك . وظنته ميتا فامسكت أنفاسها . ومدت يدها وهي في هذا الرعب الشديد نحو صـدره لتري هل مات حقا فتهرب ، أم هـو ما زال حيا فتقدم له صنيعا حتى ولو كان حياتها ...

وأخيرا هو بيدها تقترب من صدره .. وظنهـا ستتسرقه فحاول أن يحرك يده ولكنه لم يقدر . وحاول ان ينطق ولكنه لم يقدر ايضا . ولما لم تستطع يدها ان تتعرف الحقيقة من فوق الثياب مدت أصابعهـا وفكت بعض أزرار القميص لتضع أناملها أو أذنها فـوق القلب ولما أحس بيدها تقترب من صدره فعلا وتأكد من ظنه جاهد نفسـه حتى تحركت شفتاه وتمتم في توسل دون أن يفتح عينيه

— اسرقي كل شيء .. فقط أرجوك ابقي لي الصورة ... ابقي لي أحمد

واغرورقت عيناها وعبرتهما الدموع حتى انها لم تر الطريق الذي تسير فيه بعد أن غادرت المنزل .. ولما تصدرت الرؤية عليها وهي تتعثر في الطريق فتحت حقيبتها وأخرجت منديلا لتجفف به هذه الدموع التي تحجب عنها الرؤية . ولما فعلت أحست بالمنديل وهي تمسح به عينيها جافا خشنا على غير العادة يكاد يجرح جفونها أو هـو يكاد يلتصق عينيها فنظرت اليه ، ولما تبينته من خـلال شبكة الدموع التي تملأ العيون ، وجدته ورقة من فئة الخمسة الجنيهات كان قد وضعها لها في الحقيبة دون أن تعرف .

امين يوسف غراب